

البنائية الوظيفية عند الدكتور شاكر مصطفى سليم (الجبايش انموذجاً)

م. د فخري صبري عباس Dr-fakhry-sabry@yahoo.com

كلية التربية الاساسية / جامعة ديالى

الكلمة المفتاحية : البنائية الوظيفية **Keyword: Functional Constructivism**

تاريخ استلام البحث : ١٢/٧ / تاريخ قبول النشر : ٢٠١٦/١/٣

ملخص البحث :

يتلخص هذا البحث في التعريف بالبنائية الوظيفية التي استند اليها الدكتور شاكر مصطفى سليم ووظفها في دراسته الانثروبولوجية لقرية في جنوب العراق (الجبائش) . ان هذه الدراسة التي قام بها الدكتور سليم مكتوبة طبقاً لطريقة المدرسة الانثروبولوجية المعروفة بأسم :-

The British Functional School Of Anthropology

الدكتور سليم (١٩١٩-١٩٨٥) اول عراقي يتخصص بعلم الانسان (الانثروبولوجيا) وبفضل جهوده أدخل تدريس هذا العلم لأول مرة في كلية الآداب – جامعة بغداد (الجبائش) هي الاطروحة التي قدمها الدكتور سليم الى جامعة لندن عام ١٩٥٥ وقد نشرها (باللغة العربية) في جزئين نشر الاول عام ١٩٥٦ والجزء الثاني عام ١٩٥٧ م . تناول الباحث في المبحث الاول المرجعيات الاولية للبنائية الوظيفية ، وتناول في المبحث الثاني القضايا الاساسية في البنائية الوظيفية ، وتناول في المبحث الثالث تعريف بالدكتور سليم رائد الانثروبولوجيا الاول في العراق . اما المبحث الرابع فتناول بالدراسة والتحليل البنائية الوظيفية الدكتور سليم (الجبائش انموذجاً)

واخيراً خاتمة البحث ونظمت قراءة تحليلية للبنائية الوظيفية التي انتهجها الدكتور سليم في دراسته للجبائش واهم الانتقادات الموجهة للاسلوب الذي انتهجه الدكتور سليم ، وتجدر الاشارة هنا الى ان هذا البحث سلط الضوء على البنائية الوظيفية التي وظفها الدكتور سليم في دراسته لمجتمع الجبائش .

The Functional Constructivism in Doctor Shakir Mustapha Saleem (al-Jabayish as a Model)

Instr. Fakhri Sabri Abbas (Ph.D.)

Abstract :

This paper is synopsised in identifying the functional constructivism relied on by Doctor Shakir Mustapha Saleem and employed it in his anthropological study of a village in the south of Iraq (al-Jabayish). This study, which is conducted by Doctor Saleem, is written according to the approach of the anthropological school that is known as the British Functional School of Anthropology.

Doctor Saleem (1919-1985) was the first Iraqi scholar to specialize in Anthropology. Thanks to his efforts, teaching this science was included for the first time in the College of Arts/ University of Baghdad. Al-Jabayish village is the good example to be included in such a dissertation which is submitted by doctor Saleem to London University in 1955. It was first published (in Arabic) in two parts; the first was published in 1956 and the second in 1957.

In the first section, the researcher dealt with the preliminary references of functional constructivism, the second tackled the principal issues in functional constructivism, while the third is allotted to an identification of Doctor Saleem, the first pioneer of Anthropology in Iraq. The fourth section is dedicated to the study and analysis of the functional constructivism of doctor Saleem (al-Jabayish as a Model).

Finally, the paper comprised a conclusion which included an analytical study of the functional constructivism adopted by Doctor Saleem in his study of al-Jabayish as well as the most significant

censures to the style he adopted. It is worth noting that this paper has shed light on the functional constructivism employed by Doctor Saleem in his study of al-Jabayish community.

مقدمة

على الرغم من مرور حقبة زمنية طويلة نسبياً على استقلال علم الانسان (الانثروبولوجيا) عن العلوم الاجتماعية الاخرى وخاصة علم الاجتماع بحيث اصبح للانثروبولوجيا مناهجها وطرقها في البحث العلمي، الا ان هذا العلم (علم الانسان) لم يلق الرعاية والاهتمام اللازمين، بل انه يكاد يكون غير معروف الا من قبل المختصين، اما عامة الناس فهم يجهلون عنه الكثير وخاصة عند التحدث بمصطلحاته ومفاهيمه، وقد لمست ذلك حتى بين الاشخاص الذين يحملون تخصصات اكااديمية دقيقة، ودائماً ما كنت اواجه بسؤال من قبل زملائي عن معنى الانثروبولوجيا، ويعتقد البعض انه قسم من اقسام كليات العلوم يُدرس التكوين البيولوجي للإنسان، وهذا في رأيي يعود الى قلة او ندرة البحوث والدراسات والمؤلفات في هذا التخصص.

اذن نحن بحاجة الى المزيد من البحوث والدراسات والمقالات لكي يعرف عامة الناس ما الانثروبولوجيا.

لقد تناولت في هذا البحث اول دراسة علمية عراقية في الانثروبولوجيا وهي دراسة الدكتور شاكر مصطفى سليم التي اجراها في منطقة الاهوار جنوب العراق والموسومة (الجبايش).

انها محاولة متواضعة لتسليط الضوء على المنجز العلمي الرائد في مجال الانثروبولوجيا العراقية، ثم التركيز بشكل خاص على المنهج الذي تبناه الباحث وهو البنائية الوظيفية.

اتمنى ان اوفق في تحقيق الاهداف التي من اجلها اعد هذا البحث.

المبحث الاول

المرجعيات الاولى للبنائية الوظيفية

اولاً :- البعد التاريخي لنشأة الاتجاهات البنائية الوظيفية

كان العلم الطبيعي وبخاصة علم الحياة نموذجاً ظل البنائيون الوظيفيون يحاكونه وينسجون على منواله وبدرجات متفاوتة وظلت هذه المحاكاة ملازمة لهم . ولاتجاهاتهم نشأة وتطوراً وواقعاً ، الامر الذي وسم جهودهم بالتجديد حيناً وبالتقليد حيناً اخر ولم يعد ما قدموه ضمن الترتيب العام سوى افكار عامة وردت في كتابات المؤسسون الاوائل لعلم الاجتماع والانثروبولوجيا (عبد المعطي ، ١٩٨٨ : ١٥٤) .

هذه السمات الاساسية التي يمكن اعتبارها خطأ أو محوراً دارت عليه ومن حوله الدعاوى والافتراضات النظرية التي اتى بها الرواد المؤسسون للبنائية الوظيفية وهو امرٌ تفصح عنه بجلاء الخطوات المختلفة التي سار عليها الاوائل في هذا الاتجاه (مونتاغو ، ١٩٨٣ : ٣٤٥) .

وقد اشار علم الحياة ومنذ منتصف القرن التاسع عشر بوضوح الى ان بناء اي كائن حي عضوي عبارة عن ترتيب او تنظيم ثابت من العلاقات القائمة بين الاجزاء المختلفة في حياة هذا الكائن ، وعدت هذه المصاحبات او تلك النتائج بمثابة وظيفة لكل عضو من الاعضاء (ابو زيد ، ١٩٦٥ : ٢٢-٢٥) .

ثم جاء وليم روبرنسون سمث W.R Smith ليتلقف هذه الفكرة ولتبدأ أول اشارة لبزوغ الاتجاه البنائي الوظيفي ويتضح هذا من كتاب سميث حول الزواج والقرابة في المجتمع (تيماسيف ، ١٩٧٢ : ٢٤١) ويبدو لي ان الفكرة لم تكن واضحة في طروحات سمث . فقد زادها وضوحاً العالم الاجتماعي البريطاني هربرت سبنسر الذي جاء تصوره حافلاً بالاصطلاحات الوظيفية ، حيث لم يكتفِ (سبنسر) باستخدام المماثلة البيولوجية بالمعنى الحرفي للكلمة وانما استخدم التشابه البيولوجي (ابو زيد ، ١٩٦٥ : ١٣١) .

ونتيجة لهذه المماثلة فقد نشأت المدرسة العضوية الاجتماعية التي تعتمد بالاساس على مبدأ المماثلة بين مكونات الكائن البيولوجي وبين الانساق الاجتماعية وبالتالي نشوء الاتجاه البنائي الوظيفي، اي ان وظيفة كل نسق او نظام في المجتمع يشبه الى حد ما الوظائف التي يؤديها العضو في جسم الكائن الحي ، وكذلك فإن لكل نسق من الانساق الاجتماعية وظيفة يؤديها في البناء الاجتماعي وهذا ما قاد فيما بعد الى القول بأن الفرد في المجتمع له دور في اي نسق اجتماعي وهذا الدور الذي يؤديه انما هو مرسوم له من قبل النظام الاجتماعي او مجموعة الانساق الاجتماعية التي يتكون منها المجتمع .

ثم اخذت المدرسة العضوية الاجتماعية بالتطور شيئاً فشيئاً ، فكان من روادها الاوائل (البرت شاف) الذي اثرت افكاره على اثنين من رواد علم الاجتماع الامريكي

هما (البرت سمول) الذي ادخل افكاراً جديدة الى علم الاجتماع والانثروبولوجيا في اول كتاب له وهو كتاب (سمول) مقدمة في المجتمع (عبد المعطي ، ١٩٨٨ : ١٥٥) .
اما الرائد الثاني فهو (تشارلس كولي) الذي كان حريصاً على القول بأنه ينبغي استخدام التطور البنائي الوظيفي استخداماً مباشراً (قباني ، ١٩٧٦ : ٣٦٩) اذن يمكن القول بأن كتابه هذا حوى على تفسيرات عضوية للمجتمع من حيث البناء والوظيفة التي يؤديها كل منهما .

كما ان العالم " وليم كراهام سمنر " قد تأثر على ما يبدو بالعالم (هربرت سبنسر) في دراساته ، ذلك ان سبنسر يبدو في دراساته وكأنه يتبنى المنهج الامريكي وخاصة عند دراسته الطرق الشعبية بوصفها نمطاً اجتماعياً يعبر عن الوظائف التي يؤديها في البناء الاجتماعي بصورة عامة .

بعد ذلك اقترح العالم (مالمينوفسكي) نظرية وظيفة الثقافة باعتبار ان الوظيفة الاساسية لحاملي الثقافة تتمثل بالايفاء بالحاجات الاساسية لحاملها نتيجة المحاولة والخطأ .

وعلى الرغم من هذا العرض الموجز عن الجذور التاريخية لنشأة المنهج البنائي الوظيفي وما تم عرضه من افكار لبعض العلماء والمختصين في هذا الاتجاه نرى ان الاسس والجذور الاولى لنشوء هذا الاتجاه ترجع الى علماء آخرين كان لهم الفضل الاول في نشوء او ارساء فكرة المنهج البنائي الوظيفي وعليه فأنا نعتقد ان من الصواب ان نعود الى الحقب التاريخية الاولى والى الاصوات والدعوات التي جاءت عبر كتابات ومؤلفات وطروحات بعض المختصين ليس في حقل علم الانسان فحسب وانما في حقل المعرفة الاجتماعية وخاصة علم الاجتماع .

وعلى هذا الاساس يمكن القول ان اول دراسة منسقة حول منطق الاتجاه البنائي الوظيفي هي تلك التي قدمها عالم الاجتماع الفرنسي اميل دوركهايم من خلال مؤلفيه (قواعد المنهج) و (تقسيم العمل الاجتماعي) ، اذ ميز الكتاب الاول بين كل من التفسير العلمي او السببي وبين التفسير الوظيفي (عبد المعطي ، ١٩٨٨ : ١٥٦) وهكذا ومع تظافر كل الجهود التي بذلها الرواد الاوائل تبلور هذا الاتجاه بصيغته النظرية ليأخذ طابعاً تطورياً عبر السنوات التي مرت بها هذه المراحل لصياغة النظرية السسيولوجية والانثروبولوجية ، ثم توجه هذا الاتجاه نحو العالمية ليشمل مختلف المدارس في السسيولوجيا والانثروبولوجيا ، وظهرت مقالات في هذا الاتجاه في كل من المانيا وامريكا وانجلترا ، كما نشرت العديد من المقالات والكتب مثل المقالات التي قدمها (لبيولد فون) في الفترة بين عام ١٩١٨ و عام ١٩٢٤ .

خلاصة القول فأن البنائية الوظيفية قد تأثرت بشكل واضح وكبير في عشرينيات وثلاثينات القرن الماضي بجهود اثنين من الانثروبولوجيين هما (راد كلف براون) و (مالمينوفسكي) فالعالم براون تعلم في (كمبرج) وسار على طريقة (اميل دوركهايم)

ومدرسته ، واستخدام المماثلة البيولوجية لكي يوضح وظيفة كل عنصر من عناصر البناء الاجتماعي وتطوره ، اما العالم (مالينوفسكي) وسم نموذج الوظيفة بخاصية تميزه عن الاخرون من حيث المنهج والبناء ، كما انه يشير في الوقت ذاته الى النزعة (الدوركايمية) في هذا الاتجاه (عبد المعطي ، ١٩٨٨ : ١٥٦) .

كما ان هناك اتجاهاً ينحى منحىً ربما يختلف جزئياً في مسألة نشأة هذا الاتجاه اي (البنائي الوظيفي) ، فالاستنتاج الذي خرجت به من خلال ما تيسر من المصادر العلمية ان هناك اختلافاً واضحاً في مسألة الرواد الاوائل في هذا الاتجاه وتحديد او حصر اسماء العلماء والمختصين الذين وضعوا اسس هذا المنهج وهذه كما نعتقد مسألة طبيعية جداً لان الفكر الانساني ليس حكراً على عالم واحد او مجموعة علماء بل انه وكما هو معروف وليد التراكمات المعرفية الفكرية الكثيرة والمتعاقبة للفكر الانساني ، وعليه لا يمكن ان نجزم هنا بمسألة علمية قاطعة حول نشأة المنهج البنائي الوظيفي .

وعليه فقد كان (فرانس بواس) اول عالم انثروبولوجي سبق الاخرين في استخدام المدخل الوظيفي ، فقد كتب في عام ١٨٨٧ يقول ان فن اي شعب او طريقته المتميزة لا يمكن ان تفهم الا بدراسة ما يصدر عنه ككل ، ولكن الوظيفة نمت بعد ذلك في الانثروبولوجيا لتصبح اتجاهاً ثابتاً ومحدداً يعارض المدرسة الانتشارية (غيث ، ١٩٩٠ : ٧٧) .

ان الفكرة الاساسية التي تكونت لديّ حول الاتجاه البنائي الوظيفي في اعمال الرواد في هذا المنهج تبدأ من اوائل المفكرين في مجال السسيولوجيا بدأً من (اوگست كونت) و (هربرت سبنسر) و (اميل دوركهايم) وغيرهم الكثير لان هؤلاء المفكرين والمنظرين ومن خلال افكارهم وكتاباتهم حاولوا ان يتصوروا المجتمع من حيث انه بناء يتكون من مجموعة انساق تشكل البناء الاجتماعي او بصورة ادق واوضح ان المجتمع هو بناء وهذا البناء مكون من اجزاء وهذه الاجزاء لها وظائف تؤديها في هذا البناء . ولاننسى ان عالم الاجتماع العربي ابن خلدون استند على المماثلة البيولوجية في بناء المجتمع وتركيبه . و خلاصة القول ان البنائية الوظيفية في علم الاجتماع والانثروبولوجيا تأثرت بالدراسات البيولوجية المورفولوجية حول التكوين التشريحي للكائن الحي .

ومما يمكن استخلاصه حول البنائية الوظيفية ما يأتي :-

١- لم يتم استخدام هذا المفهوم من قبل العلماء بمعنى واحد وانما بصيغ متعددة وتصورات متنوعة .

٢- لم يطرأ على المفهوم أي تغير او تطور جوهرى فمنذ محاضرة (راد كلف براون) احد رواد هذا الاتجاه التي القاها عام ١٩٤٠ (النوري ، ١٩٩٩) والموسومة في البناء الاجتماعي والمفهوم يسير على وفق المعطيات ذاتها والمبادئ نفسها .

ثانياً :- التعريف بالاتجاهات البنائية الوظيفية

ترجع تسمية هذا الاتجاه الى استخدامها لمفهوم البناء Structure والوظيفة Function في فهم وتحليل المجتمع من خلال مقارنته وتشبهه بالكائن العضوي او الجسم الحي (ابو زيد ، ١٩٦٥ : ٣٨) .

ان هذين المفهومين يعدان العمود الفقري لهذا الاتجاه وسوف نعرض هنا بشيء من التفصيل المعنى الاساس لهذين المفهومين :-

أ- يقصد بالبناء الاجتماعي مجموعة العلاقات الاجتماعية البنائية والتي تتكامل وتتسق من خلال الادوار الاجتماعية ، فثمة مجموعة اجزاء مرتبة منسقة تدخل في تشكيل الكل الاجتماعي وتمتد بالاشخاص والزمير وما ينتج عنها من علاقات وفقاً لأدوارها الاجتماعية التي يرسمها لها الكل وهو البناء الاجتماعي (النوري ، ١٩٩١ : ٣٥٧) .

ب- ويقصد بالوظيفة الاجتماعية Social Function ذلك الدور الذي يسهم به الجزء في الكل (عبد المعطي ، ١٩٨٨ : ١٥٢) وهذا ما متفق عليه بين انصار هذا الاتجاه ، اما في الجوانب الاخرى ، فإنه هناك عدم وضوح في هذا المفهوم (فلفريد باريتو) (F. Pareto) احد رواد هذا الاتجاه يستخدم الوظيفة بمعنى المنفعة لاتساق النسق الاجتماعي والمحافظة عليه .

ج- ثم جاء (وليم روبرتسون سمث) ليتلقف هذه الفكرة ولتبدأ اولى اشارات بزوغ البنائية الوظيفية ويتضح هذا من كتاب (سمث) حول الزواج والقرابة سنة ١٨٨٥ (عبد المعطي ، ١٩٨٨ : ١٥٤) .

وقد وضح هذه الفكرة (هربرت سبنسر) عالم الاجتماع البريطاني ، حيث استخدم أسس ومفاهيم علم الحياة وطبقها على المجتمع الانساني تطبيقاً شبه كامل لقد كانت البنائية الوظيفية طريقاً جديداً اعان الانثروبولوجيين على القيام ببحوثهم الميدانية ، أذ تأثرت البنائية الوظيفية بالبحوث والنشاطات البايولوجية التي اثارتها نظرية (جارلس دارون) ، ونظراً لكثرة البحوث الحيوية، فقد اتسمت طرق البحث في العلوم الحياتية بالدقة ولذلك اصبحت مناهج البحث الحيوية قدوة تقتدي بها العلوم الاخرى كعلم الاجتماع والانثروبولوجيا وعلم النفس والرياضيات (الجابري ، ٢٠٠٠) .

لذلك بدأت العلوم الانسانية تأخذ من هذه العلوم (العلوم الطبيعية) قوانينها وتنظر الى ظواهرها كما تنظر العلوم الحيوية الى ظواهرها ، فالعلوم الحيوية تنظر الى الكائن الحي على انه كيان يتكون من اعضاء مترابطة وان لكل عضو وظيفته ، ولذلك أخذ الانثروبولوجيين ينظرون الى المجتمع على انه كيان مترابط يتكون من نظم مترابطة ولكل نظام وظيفته ، الامر الذي خلص الانثروبولوجيين من الطريقة التاريخية التطورية ودفعهم الى القيام بالعمل الميداني التشرحي للمجتمع مما جعلهم يقفون على الحقائق الاجتماعية (غامري ، ١٩٨٢ : ٣٣)

وبهذا اتجه الانثروبولوجيين اتجاهاً صائباً وسليماً في دراساتهم عن طريق اتباع المنهج البنوي الوظيفي .

المبحث الثاني

القضايا الأساسية في البنائية الوظيفية

ترى البنائية الوظيفية ان المجتمع يتكون من انساق محددة ومنظمة ويتألف النسق من مجموعة من المتغيرات المترابطة بنائياً ووظيفياً، وهذا كله يعتمد على الانسان الذي يعد الاساس في هذا المنهج، فالانسان هو العنصر الاساس الذي يتكون منه النسق الاجتماعي ومجموعة هذه الانساق لها دور او وظيفة تؤديها في البناء الاجتماعي لكل مجتمع، اذ ان كل مجتمع يميل الى الوحدة والتكامل العضوي في القيم والافكار والمعتقدات وفي عمليات التنافس والصراع وغيرها من العمليات الاجتماعية الاخرى، ومن خلال هذه العمليات يستطيع المجتمع ان ينجز الوظائف المطلوبة اكانت مادية أم معنوية ويعتمد هذا على مبدأ مهم هو مبدأ تقسيم العمل الاجتماعي، او عن طريق الادوار التي يؤديها الافراد داخل النسق وبما يؤدي الى حصول عملية التوازن في الوظائف والادوار.

ويرى عالم الاجتماع (اميل دوركهايم) ان الانساق مثل الدين والاقتصاد والسياسة والقانون هي انساق اجتماعية في جوهرها تمثل القيم والمثل وتشكل الضمير الجمعي (الحسن، ١٩٩١ : ٢٣٤).

ويصف عدد كبير من الانثروبولوجيين نوع الدراسة التي يقومون بها لاي مجتمع بأنها وظيفة بنائية، والنظرية التي يهتدون بها ويسيرونها عليها في هذه الدراسات يطلقون عليها (المدرسة الوظيفية، اذ اعطت كلمة وظيفة معاني عديدة ومختلفة (مير : ٤٣).

وفي ضوء هذا الفهم يمكن توظيف هذا المصطلح في الحياة اليومية للفرد بوصفه عضواً في احد الانساق الاجتماعية ويؤدي وظيفة تتناسب مع الدور المسند اليه لكونه عضواً في مؤسسة اجتماعية وبالتالي هو جزء من البناء الاجتماعي.

ان كلمة وظيفة تستعمل في معنى رياضي فقولك - س - هو دلالة - ص - يعني ان العلاقة بين - س - و - ص - مستمرة بحيث ان تغير - ص - يعني تغير - س - وقد استعمل الانثروبولوجيين الاجتماعيين في بعض الحالات هذا المجاز (مير : ٤٣).

وعليه نجد ان المنهج البنائي الوظيفي قد احتل مكاناً بارزاً في النظرية السوسيولوجية والانثروبولوجية واستند اليها الكثير من الباحثين الذي قاموا بدراسات ميدانية في المجتمعات البدائية والتقليدية معتمدين في تفسيراتهم واستنتاجاتهم للظواهر الاجتماعية على وفق المنهج البنائي الوظيفي حتى صار هناك اعتقاد بأن الدراسات الاجتماعية اخذت تتجه اتجاهاً بنائياً وظيفياً.

اذن يمكن القول ان الاتجاه البنائي الوظيفي اصبح يمثل مدرسة، ومن العلماء الذين ينادون بهذا المنهج هو العالم (مالينوفسكي) الذي طور الى اقصى حد هذا المنهج لدرجة انه اطلق على نفسه وعلى تلاميذه مجازاً اسم (المدرسة البنائية الوظيفية (مير : ٤٤).

ويبدو ان (مالمينوفسكي) كان يسعى الى ايجاد علاقة ترابط بين التنظيمات او المؤسسات الاجتماعية وبين الادوار التي تؤديها كل مؤسسة على اعتبار ان البناء الاجتماعي يعتمد على المؤسسات ويرى (كالن) (غيث ، ١٩٨٨ : ٥٧) ان الافكار المتميزة التي تعبر عن الوظيفة هي الانتقال الاجتماعي والانماط والدينامية والعملية والنمو والامتداد والانبثاق ، ويستمر (كالن) في شرحه للوظيفة فيقول كانت الوظيفة تعالج قديماً على انها (متغير معتمد) او خاصية لبناء ثابت ولكن الوظيفة اليوم ينظر اليها بوصفها (المتغير المستقل) ، ولتطوير ذلك نقول ان الانسان له ساقين (رجلين) ، وهذا بناء وهو لذلك يسير (وظيفة) اما الان فيقال ان الانسان يسير (وظيفة) وقد ادى هذا النوع من النشاط ان له ساقين (بناء) .

وهكذا نرى ان الوظيفة والبناء قد اثرت بشكل مباشر على كل نظم الفكر الاجتماعي من خلال ادخال (البنائية الوظيفية) في الدراسات الميدانية التي اجريت في مجال التنظير للفكر السوسيو انثروبولوجي قبل ذلك .

المبحث الثالث

شاكر مصطفى سليم

رائد الانثروبولوجيا الاول في العراق

الدكتور شاكر مصطفى سليم ١٩١٩ - ١٩٨٥ اول عراقي يختص بعلم الانسان (الانثروبولوجيا) وبفضل جهوده ادخل تدريس هذا العلم لأول مرة في كلية الاداب - جامعة بغداد - حيث اصبح مادة ثابتة من مواد الدراسة في قسم الاجتماع ، والدكتور سليم من الشخصيات العراقية الاكاديمية التي لعبت دوراً بارزاً في الحياة الاجتماعية في العقدين الخامس والسادس من القرن العشرين (عمر ، ١٩٩٠ : ١٤١) .

مارس الدكتور سليم النقد الاجتماعي لاحداث سياسية متصارعة في جريدة (الحرية البغدادية) اثارت انتباه الجماعات المتصارعة وكان نقده احادي الجانب ، اي انه انطلق من الجانب القومي ضد الشيوعي والمسؤولين ابان حكم عبد الكريم قاسم ، فتعرض لمشاكل سياسية ومهنية ادت به الى السجن والابعاد والنقل من كلية الى اخرى والفصل من الوظيفة (عمر ، ١٩٩٠ : ١٤٢) .

خلال ربع قرن من حياته الاكاديمية قدم الدكتور سليم عطاءً في اختصاصه في الانثروبولوجيا ، كما قدم جهداً معنوياً وتبوعياً للشعب بشكل متميز ومثير .

ويمكن ان نقسم عطاء الدكتور سليم في الاتي (عمر ، ١٩٩٠ : ١٤١)

- ١- دراسة ميدانية اكااديمية (الجبايش) .
- ٢- مقالات نقدية (جماهيرية قومية) .
- ٣- كتابات اكااديمية (تراجم وتأليف) .

المبحث الرابع البنائية الوظيفية عند شاكر سليم (الجبايش نموذجاً)

الجبائش دراسة انثروبولوجية لقرية في احوار العراق ، وهي الاطروحة التي قدمها الدكتور سليم الى جامعة لندن ونال بها درجة الدكتوراه عام ١٩٥٥ وقد نشر الدكتور سليم هذه الاطروحة (باللغة العربية) في جزئين الاول نشر عام ١٩٥٦ ، والجزء الثاني عام ١٩٥٧ واحتوت هذه الدراسة على اربعة اقسام وستة عشر فصلاً .
ان هذه الدراسة التي قام بها الدكتور سليم هي دراسة مكتوبة طبقاً لطريقة المدرسة الانثروبولوجية المعروفة بأسم (سليم ، ١٩٥٦ :) المدرسة الوظيفية للانثروبولوجيا ،
The British Functional School Of Anthropology اتبع الدكتور
سليم في دراسته للجبايش منهج الملاحظة بالمشاركة ، ذلك ان المدرسة التي ينتمي اليها وهي المدرسة البريطانية تفرض على الباحث الإقامة في المجتمع المدروس مدة لاتقل عن سنة كاملة لذلك فإن سليم وضع دراسته هذه على اساس إقامة دراسة ميدانية Field Work في القرية من الثاني لشهر كانون الثاني عام ١٩٥٣ حتى نهاية شهر ايلول من السنة نفسها ، فضلاً عن ذلك فقد اعتمد الدكتور سليم في دراسته على المخبرين في جمع المعلومات .

ولن اتحدث عن الصعوبات والمشكلات التي واجهت الباحث سليم اثناء اقامته في الجبايش لانه كتبها في الاطروحة وهي معاناة صعبة للغاية .
اعتمدت بحث سليم للجبايش على المنهج الوصفي (الاثنوغرافي) التحليلي لنواحي الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في القرية ، ويقسم سليم سكان الاحوار على اساس اساليب حياتهم الوظيفية ، والاغلبية العظمى هم من الزراع وجامعوا القصب وحاكة الحصر (سليم ، ١٩٥٦ : ٢٩) .

وهنا يظهر لنا بوضوح اثر البيئة الطبيعية في المهن التي يزاولها الناس حيث يعتمد النسق الاقتصادي بشكل مباشر على النسق الايكولوجي وهذا بدروه اثر في البناء الاجتماعي وانساقه وفي الوظيفة الاجتماعية التي تلعبها باقي الانساق وكذلك الادوار التي يؤديها الافراد داخل النسق ، وهذا في رأينا قد اثر بشكل مباشر على النسق السياسي من حيث التقسيم الاجتماعي لسكان هذه المنطقة .

ان الترابط والتكامل بين الانساق التي درسها سليم هو ترابط بنائي وظيفي لانه لايمكن فهم او تحليل اي من الانساق بمعزل عن فهم الانساق الاخرى ، لأنها تكون كلاً مترابطاً لا يمكن الفصل بينهما .

وهذا واضح بشكل مباشر في تأثير البيئة الطبيعية في منطقة الاحوار حيث اثرت بشكل واضح في نوعية وطبيعة المهن التي يزاولها الافراد فأغلب سكان هذه القرية يمارسون صناعة الحصر بسبب توفر القصب والبردى وكذلك في بناء الاكواخ

والمضاييف التي يسكنها الناس في القرية ، والامر نفسه ينطبق على طبقة المعدان الذين يعتمدون في حياتهم الاقتصادية على تربية الجاموس ، والمعروف ان الجاموس يعيش في المناطق التي تتوافر فيها المياه لان الجاموس يعوم دائماً في الماء كما ان وجود القصب والبردي يعد غذاءً اساسياً لهذه الماشية ، فسكان الجبايش يطلقون تسمية المعدان (سليم ، ١٩٥٦ : ٣٠) على العوائل التي تربي الجاموس الذي يستفاد منه ومن منتجاته .

ان الدور والوظيفة التي يلعبها الفرد في نظام القرابة هي وظيفة سياسية حيث ان الفترة التي درس فيها سليم مجتمع الجبايش كانت الامور السياسية تقوم بها العشيرة بسبب ضعف السلطة الادارية والحكومية على الرغم من وجود مركز للشرطة (سليم ، ١٩٥٦ : ٣٣) والعشيرة في مجتمع الجبايش هي المسؤولة عن حماية الفرد وممتلكاته عن طريق حل النزاعات التي تحصل وهي كثيرة بواسطة (الفصل) وهو مبلغ من المال يدفع كتعويض للفرد الذي يتعرض هو او ممتلكاته للأذى .

وهنا نرى ان وظيفة النظام العشائري هي وظيفة اجتماعية ، وهذا ما يبرر لنا وجود (اعراف) عشائرية خاصة تحدد مقدار (الفصل) بسبب عزلة مجتمع الجبايش عن العالم الخارجي حتى بدء الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨) وقبلها في عهد السيطرة العثمانية حيث لم تكن الحكومة المركزية موجودة (سليم ، ١٩٥٦ : ٤٠) فكانت العشيرة لها وظيفة حفظ الامن والنظام وحل النزاعات بين الافراد والمجموعات .

ان من الامور المسلم بها ان العائلة هي اهم واصغر مؤسسة اجتماعية لها وظيفة او مجموعة وظائف اجتماعية ، فالعائلة في الجبايش عائلة ممتدة ، لذلك فهي اضافة الى انها احدى مكونات البناء الاجتماعي ، فان لها وظائف عديدة ومتنوعة ، فهي التي تسهم بشكل مباشر في اداء الوظيفة الاقتصادية واشباع حاجات الافراد عن طريق ممارسة الزراعة وحياسة الحصر - وفي بعض الاحوال وخاصة عوائل المعدان - في تربية الجاموس ، اذ ان اغلب العوائل في الجبايش تمتلك الجاموس ولكن ليس بإمكانها بيع منتجات الالبان بسبب التقاليد والعادات الاجتماعية التي لا تسمح لهذه العوائل بيع هذه المنتجات (البياض) وهو مصطلح محلي يطلق على الحليب ومشتقاته (سليم ، ١٩٥٦ : ٣٥) .

ان السلطة في العائلة في مجتمع الجبايش هي سلطة ابوية وهذا ناتج عن اسباب اجتماعية حيث ان نظام القرابة والزواج قائم على اساس النسب الابوي (سليم ، ١٩٥٦ : ٧٦) .

وتتجلى الوظيفة في البناء الاجتماعي للعائلة في الجبايش بشكل واضح بموجب نظام تقسيم العمل وخاصة في العوائل التي تعمل في الزراعة بعمل افراد العائلة في الحقول للمشاركة في زراعة الارض (سليم ، ١٩٥٦ : ٨١) .

ولان السلطة ابوية كما ذكرنا لذلك ترى ان الاب يحاول ان يقلل من اهمية افراد اسرته ، وهذا واضح من عدم تسمية الزوجة والابناء باسمائهم بل الاستعاضة بنعوت

محلية خاصة ، حيث تنعت الزوجة بنعوت تدل على الاحتقار والاستصغار ، فستعمل الفاظ مثل (ولج) و (ولك) و (خايبة) و (خايب) (سليم ، ١٩٥٦ : ١٧٣)

كما يسود نظام تعدد الزوجات في الجبايش حيث يسمح للرجل بالزواج من اربع زوجات في وقت واحد وهذا هو العدد المسموح به في الشريعة الاسلامية .

ويلعب المضيف دوراً مهماً في الحياة الاجتماعية والعشائرية ففي ملكه وبنائه يتقرر المركز الاجتماعي لصاحبه والدور الذي يلعبه المضيف في الحياة الاجتماعية والسياسية للعشيرة بالغ الأهمية ، وينظر اهل الجبايش لتقاليد المضيف وآدابه نظرة تقديس واحترام وهو المكان الذي تلتقي فيه الشرائح الاجتماعية وتتصل ببعضها طبقاً لنظام وعرف دقيقين (سليم ، ١٩٥٦ : ٩٦) .

اذن للمضيف وظيفة اجتماعية يؤديها ، ففيه يلتقي الرجال على اختلاف انتمائهم وهذا بدوره يؤدي الى التقاء المجاميع التي تكون مؤسسات البناء الاجتماعي في مجتمع الجبايش وامر كهذا يقرب بين افراد المجتمع ويقلص الفجوة بين الشرائح الاجتماعية .

ونظام المشيخة هو الذي يسير الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الجبايش فبإمكان الشيخ ان يوجه عقوبة الى الشخص الذي يخرج عن الاعراف والتقاليد وهذه العقوبة تختلف بحسب العمل الذي يقوم به الفرد ، ففي بعض الاحيان تصل العقوبة الى حرق كوخه الذي يسكنه وافراد عائلته واجباره على الرحيل من المنطقة مصطحباً معه افراد عائلته (سليم ، ١٩٥٦ : ٢٠٥) .

وهنا يظهر وبشكل واضح الوظيفة الاجتماعية لنظام العشائر الذي يحل محل السلطة الادارية والسياسية للبناء الاجتماعي لمجتمع الجبايش وسلطة الحكومة في الجبايش ضعيفة ، ففي حادثة وقعت في سوق القرية أهين احد رجال الشرطة وصفح على وجهه اثناء القيام بواجبه الرسمي من قبل صاحب حانوت ، وفي هذه الحالة من المتوقع ان تتخذ الشرطة اجراءات صارمة ضد الذين اهانوا الشرطي ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحصل حيث ان معاون الشرطة استلم مبلغاً من المال (حشم) رداً لاعتبار الحكومة المهذور وشرفها الذي أهين (سليم ، ١٩٥٦ : ٢٤٩) من هذه الحادثة نستنتج ان البناء والتنظيم العشائري يؤدي وظيفة اجتماعية في عملية الضبط تفوق ما تقوم به الدولة حيث يغلب العرف على القانون ، وللعرف وظائف يؤديها في البناء الاجتماعي لمجتمع الجبايش وفي هذه المسألة يركز الدكتور سليم على الوظيفة والبناء في مجتمع الجبايش الذي درسه .

وفي مجال المؤسسة التربوية التي تمثلها المدرسة فإن سكان الجبايش يعتقدون بأن المعلمين غير مؤهلين لتربية وتعليم اولادهم فأهل الجبايش يعتقدون بأن المعلمين يفسدون اولادهم فهم يرددون بمرارة العبارة التالية (هذولة المعلمين مايعلمون ولدنة هذولة يفسدوهم ، كون بيهم خير جان علموا ارواحهم (سليم ، ١٩٥٧ : ٤٥١)

وهذه النظرة تعود الى ان المعلمين في القرية كانوا يمارسون لعب القمار مع بعض الموظفين الحكوميين وان سلوكهم هذا غير مرغوب به ، لذلك نجد المؤسسة التربوية فاشلة في اداء وظيفتها .

لقد كان في الجبايش قبل عام ١٩٥١ ترابط وثيق بين المكونات الاجتماعية والاقتصادية فكانت الطبقات العليا تتمتع بأرفع الامتيازات في حين ان الطبقات الدنيا لم تكن لها اية امتيازات ، ولكن دخول الادارة الاجنبية وما تنتج عنها من اتصال بالعالم الخارجي ادى الى احلال نظام السوق محل الاقتصاد التقليدي ، كما ان الغاء نظام المشيخة ادى الى تحطم الكيان الاجتماعي القديم (سليم ، ١٩٥٧ : ٢٥٣) .

من هذا نستنتج ان البناء الاجتماعي قد تحول من نظام سيادة الطبقات والوظائف التي تقوم بها الى سيادة دور الافراد رغم بقاء بعض الرواسب الطبقيّة القائمة على اساس متعددة منها النسب والمهنة والوظيفة او الدور الاجتماعي للفرد الذي يؤديه بصفته جزءاً من البناء الاجتماعي .

وعلى الرغم من ان الفرد في الرأي العام في الجبايش يربط بصورة عامة بين الاعتبار والنفوذ ، ويرى في الثاني اساساً يقوم عليه الاول ، فان هناك حالات يحصل فيها الفرد على الاعتبار ، ولكنه لا يتمتع بالنفوذ في المجتمع فالفرد من العوام يحصل على اعتبار كبير اذا ما زار (مكة) واصبح (حجي) او زار مرقد من مرقد الائمة واصبح (زاير) وكل هذه مسائل اعتبارية لا تخلق للفرد نفوذاً في المجتمع (سليم ، ١٩٥٧ ، ص ٤٥٩) .

الخاتمة

لقد قرأت كتاب الجبايش بجزئيه الاول والثاني قراءة دقيقة ومتأنية وبعد هذا البحث تكون لديّ انطباع شخصي عن هذه الاطروحة وهو ان الدكتور سليم ينتمي الى المدرسة البريطانية التي تعتمد بالاساس على المنهج الوظيفي البنائي في وصفها وتحليلها للمجتمعات المدروسة ، ونرى ان الدكتور سليم قد سلك وبشكل واضح هذا المنهج .

ولكن رغم ذلك ولكون دراسته هي اول دراسة انثروبولوجية في العراق كان يحتاج الى توكيد العلاقة البنائية الوظيفية لكي تظهر للقارئ المتخصص بشكل واضح .

يضاف الى ذلك ان الاستاذة المتخصصة في الانثروبولوجيا في العراق والذين لديهم تحصيلاً اكاديمياً لم يحلوا في دراسة منفصلة المنهج الذي اتبعه الدكتور سليم في دراسته للجبايش ، لذلك فان المهمة التي قمت بها في بحثي هذا اعتقد انها كانت مهمة صعبة وعسيرة وشاقة وتحتاج الى جهد وقت طويلين ، فضلاً عن ان الفترة الزمنية الطويلة التي تفصل بين كتابة بحثي هذا وكتابة الدكتور سليم لأطروحته هي اكثر من نصف قرن ، فمنطق الامس ليس كمنطق اليوم وهذا امرٌ معروف ومؤكد .

وفي هذا السياق اود الاشارة الى ان الدكتور معن خليل عمر في كتابه (رواد علم الاجتماع قد عرض وعارض في الوقت نفسه اطروحة الدكتور سليم في اتجاهات عديدة منها تقسيم الطبقات في الجبايش على اساس اقتصادي او اجتماعي او مهني وغيرها . كما يؤكد الدكتور معن ان الدكتور سليم (وظيفياً بالمعنى الانثروبولوجي) اي انه احد تلاميذ المدرسة البنائية الوظيفية لكنه لم يستخدم هذا المنهج في دراسته للجبايش كما يدعي الدكتور معن .

وارى من المناسب القول ان ما طرحه الدكتور معن في قضية عدم توظيف الدكتور سليم للبنائية الوظيفية للربط بين الانظمة الاجتماعية ، لا يتلائم مع ما قدمه الدكتور سليم الذي نتفق معه في توظيف البنائية الوظيفية في دراسته للجبايش . ونرى ان الدكتور سليم وصف وحل مجتمع الجبايش وترك للقارئ او الباحث الاستنتاج . حيث انه ترك الواقع يعبر عن نفسه في دراسته هذه .

كما اعتقد ان الانتقادات التي وجهها الدكتور معن الى الدكتور سليم هي محض اراء شخصية نحترمها ونقدرها وله كل الحق في عرضها كما يراها فضلاً عن ان الدكتور معن انتقد الدراسة من منظور سوسيولوجي بوصفه سوسيولوجيا وليس انثروبولوجيا .

المصادر :

- ١- ابو زيد ، احمد ، البناء الاجتماعي - مدخل لدراسة المجتمع ج ١ المفهومات ، الدار الوطنية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٥ .
- ٢- اسماعيل ، قباري : قضايا علم الاجتماع المعاصر ، منشأة المعارف بالاسكندرية ، ١٩٧٦ .
- ٣- تيماشيف ، نيقولا : نظرية علم الاجتماع وتطورها ، ترجمة د. محمود عودة وآخرون ، دار المعارف القاهرة ، ١٩٧٢ .
- ٤- الجابري ، خالد : محاضرات القاها على طلبة الدكتوراه ، كلية الاداب - جامعة بغداد ، قسم الاجتماع ، ٢٠٠٠ .
- ٥- الحسن ، احسان محمد : رواد الفكر الاجتماعي ، جامعة بغداد ، ١٩٩١ .
- ٦- سليم ، شاکر مصطفى : الجبايش ، ج ١ ، مطبعة الرابطة ، بغداد ، ١٩٥٦ .
- ٧- سليم ، شاکر مصطفى ، الجبايش ج ٢ ، مطبعة الراية ، بغداد ، ١٩٥٧ .
- ٨- عبد المعطي ، عبد الباسط : اتجاهات نظرية في علم الاجتماع ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٨٨ .
- ٩- عمر ، معن : رواد علم الاجتماع في العراق ، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد ، ١٩٩٠ .

- ١٠- غيث ، محمد عاطف : علم الاجتماع ، دار المعرفة الجامعية بالاسكندرية ،
١٩٩٠ .
- ١١- مونتاغو ، اشيلي : البدائية ، ترجمة د. محمود عصفور ، المجلس الوطني للثقافة
والفنون والاداب ، سلسلة عام المعرفة ، الكويت ، العدد ٥٣ .
- ١٢- مير ، لوسي ، مقدمة في الانثروبولوجيا الاجتماعية ، ترجمة شاكر مصطفى
سليم ، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد ، بلا سنة طبع .
- ١٣- النوري ، قيس ، مدارس الانثروبولوجيا ، بيت الحكمة ، بغداد ، ١٩٩١ .